

الحضارة العربية: مصادر القوة والمعارف

الدكتور حفيظ اسليماني

تخصص الفكر الإسلامي ومقارنة الأديان

المملكة المغربية

لقد أبدع غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب في الحديث هذه الحضارة العريقة لما لها من أهمية لا يمكن لأي إنكارها، على مستوى كل المجالات، بل إنها حضارة فاقت كل الحضارات، وقد اعترف بذلك في مقدمة الكتاب بقوله: أن حضارتهم من الحضارات التي اطلعتُ عليها في رحلاتي الكثيرة أحسنَ مما اطلعت على غيرها من الحضارات التي كمل دورها، وتجلت فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سرّها في ذلك الكتاب، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاع على تاريخها مفيدًا إلى الغاية وهو أقل ما عرفه الناس. والكتاب كله قيم لما حواه من أفكار، وسأحاول التركيز على جزئية مهمة في الكتاب وهي حديث لوبون عن مصادر قوة العرب، من خلال حديثه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم القرآن الكريم، وأخيرًا الفتوحات، ثم حديثه عن مصادر معارف العرب: التعليم والمناهج.

1- مصادر قوة العرب:

- محمد صلى الله عليه وسلم

يقول غوستاف لوبون متحدثاً عن معانات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "ولم يُنذر محمد، في السنين الثلاث الأولى من بعثته، غير عشيرته الأقربين الذين كانوا، على العموم، من ذوي النفوذ والوجاهة بسبب مقامهم وأعمارهم، فلما اطمأنَّ إلى جوارهم جَهَرَ بدعوته، وأخذ يحمل على الإشراك الذي كان مركزه في بيت آلهة جزيرة العرب المقدس، الكعبة،. ولم يُكتب له التوفيق في بدء الأمر، وكان الناس يسخرون منه، ولكن سخرية سَدَنَةِ الكعبة، قريش، لم تلبث أن انقلبت إلى غضبٍ على محمد، وتهديد له ولمن والاه بالقتل"¹.

إلا إنه رغم هذا الأمر فإنه صلى الله عليه وسلم يضيف لوبون: "لم يُفَلِّ ذلك من عزم محمد، وقد قال، كما ذكر أبو الفداء: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر"².

بعد ذلك تيسرت الأمور لخير البشرية يقول غوستاف: "ولم يلبث الأمر أن تبدَّل، ولم يلبث الزمن أن تبسَّم لمحمد بعد عبوس، فقد اغتتم محمد موسم الحج، ودعا إلى دينه أناساً من اليمن كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغيرة، وكانوا ينتظرون، كما شاع بينهم، ظهور نبيٍّ، وقد استهواهم حديثُ النبي، واعتقدوا أنه هو النبي المنتظر، وقد حدَّثوا بذلك أهل يثرب التي كانت تأكلها الغيرة من مكة أيضاً، وقد جاءه من هؤلاء رجالٌ كثيرٌ؛ ليستمعوا إلى دينه البسيط الواضح، فلم يطلب منهم غير الإيمان بالله واحد وبالآخرة حيث يجازى الأشرار ويكافأ الأبرار، وغير إطاعة أمر الله، والصلاة صباح مساء مع الطهارة بالوضوء والتحلِّي بجميع الفضائل، والإقرار بأن محمداً رسول الله وإطاعته، وقد أخذ هذا الدينُ بمجامع قلوبهم؛ فأمنوا به وصدَّقوه وبايعوه، ثم انصرفوا للدعوة إلى دينه"³.

وقد استطاع صلى الله عليه وسلم بجمع العرب وجعلهم أمة واحدة، يقول لوبون: "وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم أمةً واحدة خاضعة لدين واحد مطيعةً لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى"⁴.

ليختم لوبون بشهادة في حق خير البشرية عليه الصلاة والسلام بقوله: "وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصفون محمداً مع أن

¹ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص: 109

- نفسه، ص: 109²

- نفسه، ص: 110³

- نفسه، ص: 119 4

التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله، قال العلامة بارتملي سنت هيلر: "كان محمد أكثر عرب زمانه نكاءً وأشدهم تديناً وأعظمهم رأفةً، ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ونَعُدُّ دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته"⁵.

- القرآن

من حديثه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إلى حديثه عن الكتاب المنزل عليه، يقول لوبون معترفاً "تعترف بأن في القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبقه إليها كتاب ديني آخر"⁶. وعن بساطة ديننا الحنيف يقول: "والدين الذي دعا النبي إليه الناس سهل جداً، وقد عَرَفَهُ محمد بالكلمات القليلة الآتية حين أتاه جبريل بزِّيِّ العرب وسأله عنه ، وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً وهذا التعريف الذي قبله جبريل تامٌ كما هو واضح"⁷.

ومصدر بساطة وسهولة السلام ترجع التوحيد، يقول غوستاف: "وتَشْتَقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرُّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهلٌ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرُّد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل"⁸.

ولعل هذه البساطة وغيرها كانت سبب انتشار بسرعة، يقول غوستاف: "وساعد وضوح الإسلام البالغ، وما أمرَ به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونُقَسِّر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نُفسر السبب في عدم تنصُرِ أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة"⁹.

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 120⁵

- نفسه، ص: 121⁶

- نفسه: 122⁷

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، نفسه، ص: 132⁸

- نفسه⁹

يضيف أيضاً معترفاً بمدى ملاءمة لاكتشافات العلم قائلًا: "والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح، والبُدْهيَّةُ، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفةً، تراها مضطرة أن تتحول تحولاً تاماً لتستمرئها الجموع، وهي لا شك، دون الإسلام في شكلها المعدل هذا".

كما رد غوستاف على شبهة مشهورة تروجها الكتابات الغربية المغرضة، وهي انتشار القرآن بالسيف، يقول لوبون عن ذلك: "ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالذعوة وحدها اعتنقه الشعوب التي قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يومًا فيومًا مع أن الإنكليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجّهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تبعًا إلى الهند لتتصير مسلميها على غير جدوى"¹⁰.

الفتوح

نأتي الآن إلى قضية الفتوحات التي أثرت حول كثير من الشبهات، لنقرأ ما يقوله غوستاف لوبون، مبينا منة الإسلام على الشعوب، يقول "ولم يلبث الإسلام أن من على جميع الشعوب التي خضعت لسلطانه مثل ما مننت به عظمة رومة على الرومان، فمنح تلك الشعوب مصالح مشتركة، وأمالاً مشتركة موجّهاً بذلك جهودها نحو غرض واحد مع أنها كانت ذات مصالح مختلفة قبل ذلك"¹¹.

وقد أعطى غوستاف لوبون نموذج عمر بن الخطاب يقول: "ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذي كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذي ناقضه ما اقترفه الصليبيون في القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطريرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى الأهليين الأمان، وقطع لهم عهدًا باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين في بيعةهم"¹².

يضيف غوستاف مقارنة بين الفتوح العربية وغيرها بالقول: "وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 134 - 135¹⁰

- نفسه، ص: 141¹¹

- نفسه، ص: 143¹²

يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعة حضارةً جديدةً كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، والذين تمكنوا من اجتذاب. أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة، واتصلت بالعرب أممٌ قديمة، كشعوب مصر والهنود، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفرنَّ عمارتهم¹³.

هذه في فتوح العرب، فتوح المنة، فتوح احترام المقدسات، فتوح بهذه الصيغة والطريقة، جعلت الأمم تنجذب إلى الإسلام وحضارته.

هكذا، يكون غوستاف لوبون قد نطق بالحق وهو يتكلم عن أهم القضايا الجوهرية، شخصية خير البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، ثم القرآن الكريم، وأخيراً فتوح العرب. وما أحوجنا اليوم إلى تذكير الآخر المختلف عنا عقدياً بمثل هذه الكتابات المنصفة لنسد الباب عن مثيري الشبهات المغرضة في حق ديننا وحامل رسالته، فهل نحن فاعلون؟

- مصادر معارف العرب: التعليم والمناهج:

مصادر معارف العرب، فقد كانت شهادة لوبون فيما يخص هذه النقطة شهادة تستحق أن تكتب بماء من ذهب، في الوقت الذي تسعى فيه أقلام أخرى إلى تبخيس مساهمة العرب في بناء الحضارات بل وأثر العرب على الإنسانية جمعاء.

- مصادر معارف العرب العلمية والأدبية:

يقول لوبون عن دراسة العرب للآداب والفنون: "كانت حضارة الفرس وحضارة بزنتة العظيمنتان تقذفان نيرانهما الأخيرة حينما بدأت فتوح العرب، وقد استوقف العالم الذي فتَّحَه أتباع النبي خيالهم المضطرم، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثل نشاطهم في فتوحهم، ولم يلبث الخلفاء، بعد أن شادوا دولتهم، وأن أنشأوا في جميع المدن المهمة مراكز للتعليم، وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة أشهر الكتب، ولا سيما كتب اليونان"¹⁴. هكذا هي همة العرب الاهتمام بالمعرفة، ف أنشأوا مراكز للتعليم

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 144 - 145¹³

14 - حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 449

وعن الاهتمام بالترجمة يضيف لوبون: "وَوَجَدَ العرب في بلاد فارس وسورية، حينما استولوا عليها، خزائن من العلوم اليونانية، وأمروا بنقل ما في اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية، ولم يلبثوا أن أمروا بأن يُنقل إليها ما لم يكن قد نُقل، فأخذت دراسات العلوم والآداب تسير قُدماً إلى الأمام"¹⁵.

لم يقف العرب عند حدود ما ترجموه، بل تعلموا اليونانية، يقول لوبون: "ولم يَدُم اكتفاء العرب بما نُقل إلى لغتهم طويلاً، فقد تَعَلَّم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية، على الخصوص، ليستقوا منها علوم اليونان، ثم تَعَلَّموا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية في إسبانية، كما يشهد بذلك ما في مكتبة الإسكوريال من المُعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الإسبانية التي أَلَّفها علماء من المسلمين"¹⁶.

خاتماً لوبون هذا الجانب بشهادة رائعة يقل فيها: "والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب على البحث، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل"¹⁷.

- مناهج العرب العلمية:

بعد حديثه عن المعارف، جاء دور الحديث عن المناهج يقول لوبون: "لم يلبث العرب، بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان، أن أدرکوا أن التجربة والترصد خيرٌ من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتدال هذه الحقيقة جد علماء القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها. ويُعزى إلى بيکن، على العموم، أنه أول من أقام التجربة والترصد، اللذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ"¹⁸. يضيف لوبون معترفاً بفضل العرب فيما يتعلق بالمناهج "ولكنه يجب أن يُعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم، وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب، ولا سيما هُنْبولد، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم قال: إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريباً"¹⁹.

وعن مدرسة بغداد وما اشتهرت به، يقول لوبون: "أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البُداء هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدةً لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم، والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات، وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة — مبادئ

15 - نفسه، ص: 449

16 - نفسه، ص: 449-450

17 - حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 450

18 - نفسه، ص: 450-451

19 - نفسه، ص: 451

قال بها أساتذة من العرب، وكان العرب، في القرن التاسع من الميلاد، حائزين لهذا المنهاج المُجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات²⁰.

يضيف كذلك: "قام منهاج العرب على التجربة والترصد، وسارت أوربة في القرون الوسطى على درس الكتب والاختصار على تكرار رأي المعلم، والفرق بين النهجين أساسي، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق. واختبر العرب الأمور وجربوها، وكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهاج في العالم، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً، قال دُو لَنْبِر في كتاب تاريخ علم الفلك تعد راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة، وتعدُّ عددًا كبيرًا من الرُصاد بين العرب فلا تجد مُجربًا يونانيًا مع أن المجربين من العرب يُعدُّون بالمئات"²¹. هكذا كان العرب أول من أدرك المنهاج في العالم. اعتماد العرب على التجربة كان له الأثر الإيجابي على المؤلفات، يقولو غوستاف: "ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقةً وإبداعًا لا يُنتظر مثلهما من رجل تَعوَّد درس الحوادث في الكتب، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة. ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نَشروها، كذلك، بما أقاموا من الجامعات وما أَلَّفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية"²².

أخيرًا وليس أخيرًا، يمكن أن نختم بما جاء في مقدمة الكتاب: وكلما أمعنا في درس حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم ظهرت لنا حقائقٌ جديدةٌ وآفاقٌ واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوربة مادةً وعقلًا وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يُفقههم قوم في الابتداع الفني.

- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص: 451-452²⁰

21 - نفسه، ص: 452

22 - نفسه، ص: 453